المكان وسطوة الذاكرة عند يوسف زيدان

The place and the power of memory with youssef zaidan

ط.د. بن حسين داودي [1*]، د . لخضر بن السايح [2]

[1] جامعة طاهري محمد بشار (الجزائر).

[2] جامعة عمار ثليجي الأغواط (الجزائر).

تاريخ الاستلام : 18 نوفمبر 2020 ؛ **تاريخ المراجعة :** 04 أفريل 2021 ؛ **تاريخ القبول :** 31 ماي 2021

ملخص:

إن روايات يوسف زيدان وجل خطابه السردي يتميز بخواص الرواية الجديدة التي تتصف بالتجديد والاستمرارية سواء في مجال الحكي والمنظومة السردية أو في مجال الشاعرية والحداثة، فهو دائما يحاول أن يجعل من خطاباته ذات مصداقية وتأثير على ساردیه، ليتحول هذا التأثير على القارئ ونجده يتسلح دائما بتوظيف المكان التاريخي والتراثي في تناغم جاد مع صوت وفعل وخيال الذاكرة، هذه الأخيرة التي نجد فعلها ونفوذها وسطوتها على كل العناصر السردية تاركة بصمة واضحة وحاضرة في حياة ساردیه وكل شخوصه على اختلاف أطيافهم .. بصمة نفسية ودينية واجتماعية لملامسة تأثيرات الماضي وراهن الحاضر واستشرافات المستقبل.

الكلمات المفتاحية: المكان؛ الذاكرة؛ الرواية؛ النبطي؛ عزازيل.

Abstract:

Youssef Zaidan's novels and the bulk of his narrative speech are distinguished by the characteristics of the new novel, which is characterized by renewal and continuity, whether in the field of narration and the narrative system or in the field of poetics and justice, as he always tries to make his speeches credible and have an impact on his narrators so that this influence turns on the reader and we find him always armed by employing the historical and heritage place In serious harmony with the voice, action and imagination of this last memory, which we find its action, influence and power over all narrative elements, leaving a clear and present imprint in the life of Sardi and all his characters of all sects .. a psychological, religious and social imprint to touch the influences of the past, the present and future prospects.

Keywords: : place, memory, novel, Nabati, Azazel.

*Corresponding author: e-mail: hh9268177@mail.com.

- مقدمة:

ليست روايات يوسف زيدان ضربا من ضروب الترف الفكري المحض كما يبدو لقارئها أول الأمر، ولكنها مساءلة للذات في نطاق أفضية متعددة، وإفضاء ذوات مختلفة عبر أفضية وعوالم لا يشبه أحدها الآخر ولا ينوب أحدها عن الآخر. فهي ذلك الفن الذي يلتقي فيه السحر بالعجائبي عبر فتنة اللغة الشعرية وجلال المعنى الفتان في سمة نكاد نراها بارزة عنده حتى غدت غواية فنية وجمالية من جمالياته لا تظهرها رواية من رواياته حتى تؤكدها أخرى في شعرية منقطعة النظير تكتنزها شخوصه وفضاءاته ومن ثم عالمه السردي الفتان بكل ما تحمله هاته الكلمة من صياغات ودلالات.

والمكان حاضر في نصوصه السردية ليس بتوصيفه للأشياء ومكوناتها ولا بذكر الطبيعة وملامح العمران والمساكن ولا بذكر الأطلال بل في الموقعة السردية ككل والتي تمثل فعل الدلالة النصية والتي تعلن القراءة ولادتها من جديدة . ولادة قيصرية من خلال الاحتفاء بالمكان قد تتيح لنا مدخلا رمزيا عبر المكونات السردية وتفاعلها محدثة ما يسمى بإنتاج المعنى .

ونظرا لتميز روايات يوسف زيدان برحابة المكان وتنوعه من تاريخي وتراثي وحضوره الطاغي بشغله حيزا كبيرا فيها وارتباطه بالذاكرة التي فرضت سلطتها وهيمنتها في الخطاب السردي عنده وهذا يطرح إشكاليات عدة ومن أهمها ما جاء عنوانا لدراستي:

- ما العلاقة بين المكان والذاكرة عند زيدان وأي سطوة وسلطة تحملها هذه الذاكرة ؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية يجب معالجة اشكاليا ت فرعية أخري :

- ما هوية المكان في أهم أعمال يوسف زيدان الروائية ؟
- ما العلاقة بين الذاكرة والرواية وبخاصة عند يوسف زيدان ؟
- أي سطوة وسلطة تحملها هذه الذاكرة وما مدى فعلها في أمكنة زيدان الروائية ؟

1 . المكان في أعمال زيدان:

إن من أبرز أعمال يوسف زيدان الروائية (رواية عزازيل) هذه الرواية التي تغازل الروح الإنسانية بكل أطيافها ولا تكاد تنتصر لطرف حتى نراها تنصف الآخر في جدلية سمتها الحقيقة في لبوس الخيال فلو قرأناها قراءة حقيقية كما يرى جابر عصفور (لأدركنا سمو أهدافها ونبل غاياتها الأخلاقية والروحية التي هي تأكيد لقيم التسامح وتقبل الآخر واحترام حق الاختلاف ورفض مبدأ العنف، ولغة الرواية لغة شعرية تترجع فيها أصداء المناجيات الصوفية خصوصا حين نقرأ مناجاة هيبا لربه) (يوسف زيدان، 2011، ص الغلاف)

وإنصافا وإحقاقا لهذا العمل ونقصد به رواية عزازيل فإن الكثير من النقاد يرونها من الأعمال المبدعة لما تحتويه من مناطق حوارية وإنسانية مكتوبة بحساسية مرهفة تمتزج فيها العاطفة بالمتعة.

والحق كما يقال ما شهد به الأعداء فحتى وإن لاقت رواية عزازيل نقدا دينيا لاذعا فإنها بالمقابل تركت انطباعا حسنا عند جزء من هاته الفئة نفسها، فهذا المطران يوحنا جريجوريوس (يوسف زيدان، 2011، ص

الغلاف) يرى أن (يوسف زيدان هو أول روائي مسلم يكتب عن اللاهوت المسيحي بشكل روائي عميق وهو أول مسلم يحاول أن يعطي حلولا لمشكلا ت كنيسة كبرى، إن يوسف زيدان اقتحم حياة الأديرة ورسم بريشة راهب أحداثا كنسية حدثت بالفعل وكان لها أثر عظيم في تاريخ الكنيسة القبطية).

وغير بعيد من هذا الكلام في فحص أعمال زيدان الروائية نلحظ تقريبا نفس الإطراء في عمل أخر ورواية مبدعة أخرى ألا وهي رواية النبطي التي حلقت قريبا زمنيا ومكانيا وشعريا من رواية عزازيل فلا نقول أنها كانت تكملة ولكن نستطيع القول أنها تنهل من الذاتية نفسها وتنتصر للعدو بسماحة الصديق برؤيا إيديولوجة ساحرة تؤكد الوجود بالغياب وهذا ما تؤكده فاطمة ناعوت في رؤيتها حول هذه الرواية فهي تؤكد أنها (رواية بديعة تضيف إلى رصيد يوسف زيدان الإبداعي المميز الثري من حيث البناء اللغوي ومن حيث تضفير التاريخي بالإبداعي في جدلية إشكالية تمنحه الكثير من المريدين والكثير جدا من المناوئين) (يوسف زيدان، 2015، ص الغلاف)

وفي نفس الصياغ نجد أدونيس يحلق بهذه الرواية تحليق هدهد سليمان بحثا عن الحقيقة في جمالية سردية تتنفس الخيال فنا وإبداعا ....(هدهد جار ليوسف زيدان محلل نفسي يصغي إلى حديث امرأة تتشبه ببلقيس غير أنها ترفض أن تقابل سليمان كان يوسف زيدان يجلس هانئا في عربة المخيلة منجذبا إلى قطب أنثوي لا يكشف سره إلا لأولئك الذين قدت قمصانهم من جميع الجهات) (يوسف زيدان، 2015، ص الغلاف) وكما خطفت مارية قلب زيدان بحقيقتها وخياله فإنها أيضا خطفت قلوبنا وتحركت كل مارية فينا فصارت تخطف القلب ببراءتها وبكارة إدراكها على حد تعبير ورؤية ظبية خميس ففيها تضيف ....(طزاجة السرد الذي يلامس جدران بيوت الطين وأرواح من يسكنونها رائحة الفقر الطيب وتخاطف الأقدام في زمن صادف أنه نقطة تحول كبرى في الدين والبلاد وموت زمن وولادة عفية لزمن جديد على الإنسانية آنذاك) (يوسف زيدان، 2015، ص الغلاف).

إن المكان في روايات يوسف زيدان حافل بالبعد والاختلاف، فأما من حيث البعد فلا يكاد يستقر شخص من شخوصه ولا بطل من أبطال رواياته في مكان حتى يغادره إلى آخر في سفر طويل، ومشقة مضنية على مطايا ورواحل تؤكد هي الأخرى بعدا آخر هو البعد الزمني (الإيغال في التاريخ)، وأما بخصوص الاختلاف فيكفي أن نومئ إلى فضاءات رواياته التاريخية والدينية وتوظيفه للمكان التراثي وعبر هذه الأمكنة كانت تتبدل ملامح هذا المكان وتصوراته وحتى سلوكاته ومزاجه، فهو نفور بحس شخوصه من أمكنة، وهادئ في غيرها وهذا ما يفسر أهمية هذه الأمكنة ودورها في صياغة وتكوين عقلية أبطال رواياته وكل الفاعلين والمنفعلين في آن واحد بعاملي الزمان والمكان، وهذا الأخير ونقصد المكان بوصفه قدرة فاعلة من شأنها أن تؤثر وتشكل، وتضيف وتعدل، وتلغي وتخلق سواء كان ذلك على المستوى الشعوري النفسي أم على المستوى الوقائعي الحدثي:" إن المكان الروائي يصبح نوعا من القدر، إنه يمسك بشخصياته وأحداثه ولا يدع لها إلا هامشا محدودا من الحركة" (غالب هلسا، 1989، ص12).

للفضاء والمكان أهمية وتأثير على الذات وسلطة على الفعل وحتى على الآراء البشرية من انصياع ورضوخ وهذا لا يثبت فاعلية المكان المطلقة، فبقدر ما يصوغ المكان الشخصيات والأحداث الروائية يكون هو أيضا من صياغتها.إن البشر الفاعلين صانعي الأحداث هم الذين أقاموه وحددوا سماته، وهم قادرون على تغييرها ولكنهم بعد أن يقوموا بذلك، فهم يتأثرون بالمكان الذي أوجدوه (حسن مصطفى سحلول، 2011، ص3).

تقول مارية ... (في يوم حار لم تسطع فيه شمس جاء العرب من بعيد يخطبوني لواحد منهم، الأوان ربيع غير أن الغبار الأصفر منذ يومين من صحرائهم القريبة الجرداء يهيم في كل الأنحاء فيحجب الأشياءمن حولي ويطمرها) (يوسف زيدان، 2015، ص11) إن المكان هنا في فاعليته يدخل الشك ويحجب الحقيقة التي تحلم بها الساردة، فالصحراء عندها جرداء وواحة للنفي والمعاناه والقهر وجدبها يفسر جدب الأنثى والممثل في عقم مارية أو عدم إنجابها .

(ثم قالت أنها قلقة على أخيها لأنه لم ينجب مني ...الجميع يعلمون أن المصريات يسحرن الرجال، فكفي أعمال سحرك يا ماوية ليرزق أخي بالبنين) (يوسف زيدان، 2015، ص 358).

(لا تقولي لأحد إن زوجك لا ينجب فهذا عندنا من المعايب الداعية إلى احتقاره وهو لا يستحق ذلك منا..) (يوسف زيدان، 2015، ص359).

ليتبدد الحلم المنشود من الرحلة والزواج وقيود المكان وجدب الصحراء، فلا سلومة كان سليما ولا هي تستطيع كسر القيود وتغيير الأعراف، ولكن الحلم يبقى قائما في حياة روحية جديدة ومشاعر طيبة تمثلها العشرة والحب الدفين ..(.بعد العشاء اتكأ زوجي بكوع ذراعه على وسادة من صوف، وجال بفكره في نواح بعيدة وقد بدا راضيا بالليلة القمراء والهواء اللطيف، وحين هدأ المساء وسكنت من حولنا الأصوات اعتدل في جلسته وقال مخاطبا أخته والحاضرون كلهم ينظرون ...أنا لا أشتهي من نساء الدنيا ولا الآخرة إلا امرأتي هذه). (يوسف زيدان، 2015، ص363).

يقول "هيبا" : (في أيامي الأولى بأورشليم كنت أفكر في ....الحج وأسائل نفسي عما أخرجني من بلادي الأولى، وأتى بي إلى تلك البقعة المقدسة. أما كان من الممكن لي أن أمس جوهر القداسة في نفسي، وأنا معتكف في صحراء قريبة من موطني الأول) (يوسف زيدان، 2011، ص186) ، يقصد "هيبا" إلى مكانه بنفسه ويضفي عليه صفة القداسة (أورشليم المقدسة) وبعد أن يصل إلى المكان، يفعل هذا الأخير فعله فيه فيبحث هيبا عن الجزئية التي جعلت هذا المكان بهذه الكيفية ، ولهذا نسمعه يتساءل في حيرة :" هل كنا فعلا في أورشليم". (يوسف زيدان، 2011، ص19).

هل هذه المهابة وهذه القداسة مردها المباني الهائلة ؟ ربما أن جلال الأمكنة مرده الضخامة، أو ربما أن هذا المكان صلة بالسماء تتجلى في كنيسة القيامة القابعة فيه كالوشم على جسد الإنسان.

يتجلى المكان الروائي في " عزازيل" في بعض الأحيان عن حيوية مرحة تدعو إلى الابتهاج والانشراح والمرح الذي لا يضارعه إلا حلول عيد، وهنا يمكن أن نتلمس أثر المكان في مداواة الذات القلقة من اقتراب أسبوع الآلام. لطالما قصد الناس "هيبا" ليداويهم ويعالجهم من وساوسهم وأسقامهم:" كثرت ألوان البضائع على رفوف دكاكين

المدينة التي كانت من قبل خاوية كان الناس في ابتهاج وكان قلبي يضطرب كلما اقترب أسبوع الآلام. (يوسف زيدان، 2011، ص25).

حيوية المكان وفاعليته تفرض نوعا من الانفعال النفسي أشبه شيئا بالحبور الذي يتغشى الكائن الذي اعتاد رتابة الحياة وخواء الأجواء، ثم فجأة تنبعث الحياة في دينامية تكذب أن هذا المكان ملئ بالحيوات. ماذا يمكن أن يقدم هذا الطبيب لزائريه المرضى الوافدين عليه من كل مكان؟" جسست نبضه فكان ضعيفا، وتفحصت ما كان يخرج منه فعرفت أنه يعاني من ضعف المعدة وسوء الهضم) (يوسف زيدان، 2011، ص202).

2 . الرواية والذاكرة :

إن الذاكرة أو الاستذكار يعبران دائما عن لمسات حياتية عند الإنسان مورست بشكل أو بآخر عن طريق الحلم أو الخيال أو حتى الحقيقة والذاكرة ذات طبيعة مرنة تسمح دائما بمرور ونفوذ ما علق بها إلى الواجهة حسب كل موقف وفي إطاره الزماني والمكاني والشعوري والذي يستدعي دائما المشاهد التي تعبر عن كل حالة شعورية.

ولأن أغلب الروائيين حين يكتبون من الذاكرة فإن كتاباتهم تكون نوعا من الاختراع التخييلي للماضي على حد قول الروائي مفتي بشير (فلأن ما يهم ليس استرجاع الذكريات بل إعادة كتابتها من جديد، إعادة اختراعها لتصبح جزءا من خيالات وأوهام الكاتب أظن هذه اللعبة هي المفضلة عند أغلب الكتاب، خاصة أن الذكريات بشكل عام لا يمكنها أن تكون ثابتة ودقيقة. ما نسترجعه ونستحضره من الزمن الماضي هو صورة عن الماضي تظل حاضرة، ولكن بشكل متحكم فيه) (أحمد رجب، 2018، ص14).

وقد لجأ يوسف زيدان إلى هذا الخزان لاستدعاء مشاهد ماضية لإضاءة إحباط الحاضر الروائي، وهذا ما يعرف في المنظومة السردية بالاستذكار والعودة إلى الماضي:" إن كل عودة إلى الماضي تشكل بالنسبة للسرد استذكارا يقوم به لماضيه الخاص، ويحيلنا من خلاله على أحداث سابقة عن النقطة التي وصلتها القصة. ومن بين الأنواع الأدبية المختلفة تميل الرواية أكثر من غيرها إلى الاحتفال بالماضي، واستدعائه لتوظيفه بنائيا عن طريق استعمال الاستذكارات التي تأتي دائما لتلبية بواعث جمالية وفنية خالصة في النص الروائي"(حسن بحراوي، 1990، ص121).

ولا يمكن ارتباط الذاكرة بالروائي فقط بل نجدها تقف وقفة واعية عند كل قارئ بصفته شريكا في العملية التواصلية وعليه يقع مدار النص، وتؤكد هذا الأكاديمية العراقية نادية هناوي سعدون (مابين الذاكرتين السردية والقرائية يتم بناء منظومة الوعي فلا يعود للكلمة في الذاكرة معنى بل هي إشارة لمعان عدة تحمل القارئ على التفاعل والمشاركة والإنتاج وبذلك تغدو عملية التذكر البوابة للانشطار الذاتي بين ماض ذاهب وحاضر راهن، سواء أكانت الذاكرة معطوبة أو مسترسلة أو مستفزة يقظة لتكون النتيجة فاعلية نفسية ....لكي تؤدي وظيفتها النفسية داخل السرد وفق الوعي باللحظة الراهنة للحاضر، وهذا ما يجعل الكتابة الذاكراتية نوعا من المعركة ضد النسيان) (أحمد رجب، 2018، ص14).

وإذا كانت أغلب الروايات توظف هذا الاستذكار، بالإضافة للاستشراف وهذا الاستدعاء للمشاهد الماضية حينما يمر السرد بفترة حرجة، أو عندما تتعرض إحدى شخصيات الواقع إلى مأزق. فيهب السارد إلى الماضي فيجلب مشاهد سردية ليواسي هذه الشخصية أو تلك .أو يهب لاستدعاء مشاهد مستقبلية لا تكون إلا من خياله ليسهل بها حركة السرد أو يواسي حاضر الشخصية أو ماضيها ومستقبلها.

فرواية عزازيل بنيت أصلا على ذاكرة بطلها " هيبا " " في ذلك الصندوق الخشبي، محكم الإغلاق الذي أودع فيه الراهب المصري الأصل هيبا ما دونه من سيرة عجيبة وتأريخ غير مقصود لوقائع حياته القلقة، وتقلبات زمانه المضطرب." (يوسف زيدان، 2011، ص10).

وهكذا يجد قارئ الرواية أن جل مشاهدها استذكار يعتمد على المكان، وبدوره يربط علاقات بالعناصر السردية الأخرى، والقوى الفاعلة في العمل الروائي والتي تخضع إلى ناموس السرد الروائي وعناصره .

باعتبار هذه القوى الفاعلة عنصرا من هذا الناموس فهي تمارس الفعل السردي في حيز مترامي الأطراف يحدده مسبقا السارد، باعتبار المكان عنصرا كذلك من هذا الحيز، فهو يلعب دورا هاما في احتضان هذه القوى وأفعالها، ومن الطبيعي أن يكون هناك تلازم بين هذه القوى والمكان الذي يحتضنها بالإضافة إلى دور السلطة التي تفرضها الذاكرة .

أما في رواية النبطي فإن الروائي يوسف زيدان قد لجأ أيضا للذاكرة في مراحل متكررة على لسان ساردته، وهذه المرة كان السارد صوتا أنثويا على خلاف رواية عزازيل التي كان فيها السارد ذكوريا وهذا دائما يجلي لنا حقيقة الصراع الديني الإنساني والذي تغذيه الذكورة والأنوثة بلمسة الذاكرة (أما بعد فقد أخبرني شيخي الجليل الحسن الاسكندراني عن شيخه الأجل محمد اللواتي قال :أخبرنا الإمام مسعود المغربي في مجلسه بسنده....عن عبد الله المعمر نزيل القاهرة عن شيوخه وشيخاته وبعض عماته عن الخالة الغابرة مارية وقيل بل صواب اسمها ماوية أنها قالت :) (يوسف زيدان، 2011، ص9-10).

والذاكرة في بنائها للمكان لا تعتمد على الاستذكار فقط بل هي تتأرجح بينه وبين الاستشراف وحتى عن طريق الأحلام؛ أحلام اليقظة وأحلام النوم (صحوت ساعة الضحى فوجدتني بالبيت وحدي ونظرت من نافذتي فرأيت المكان خاليا نزلت أتلفت فكان بآخر السيق نسوة يتهامسن وعند المدخل رجال يجلسون أحس كأنني أحلم أو أصحو من حلم مديد أو لعلني أنتقل بين حلمين .... ما هذا الذي أراه ? هو بحر من حليب أبيض على شاطئه الحبيب أبيض يغرف لي بكفيه فأشرب وبشفتي أمس راحتيه الأطيب ..... في أفق حليبي يقطر في البحر السماء حتى إذا ذاب السحاب وناب الحضور على الغياب خلص الهواء إلى الهواء) (يوسف زيدان، 2015، ص383-384).

3 . المكان وسطوة الذاكرة :

لعل ما يميز المكان والفضاء الروائي عن باقي العناصر السردية الأخرى أنه وبالعودة للدراسات السيميائية الحديثة أنه يشكل علامة ومرجعا، وهاته العلامة في كونها عاملا مساعدا للتذكر وهذا ما تفسره في أدبنا

العربي الوقفات الطللية في شعرنا الجاهلي؛ فالشاعر نراه أمام المكان يقف حائرا متذكرا فيوحي له المكان كل ما كان ويصبح قرينة ورمزا تتحرك بها قريحته مبدعا وتهيج خيالاته بواسطة الذاكرة التي نراها تفعل الفعل نفسه في الخطاب السردي فبمجرد ذكر المكان أو رؤيته أو سماعه أثناء فعل القراءة تتحرك تأثيراته في نفوسنا لنعيش ماضينا، وكل ما أنشأناه من أوهام وخيالات في طفولتنا أو ما يسمى نقديا بشاشة الذكرى.

كما يمكن للقارئ أن يرى في أناه هذه البشاشة بفعل التذكر لماضيه وذلك بالرجوع إلى باطنه واستجلاب صور الماضي .

إن الرواية من شأنها أن تنفذ إلى هذا القاع السحيق، المستعصي على الرصد في الذات الإنسانية وتستفزه بعامل سحري أثيري هو السرد، في متعة جمالية وإفضاء عجيب، ومغازلة رقيقة للوعي واللاوعي على السواء .

السرد كفيل أن يحيي لدينا باستمرار ذكريات دفينة عن طريق الأمكنة وتنوعها، اختلافها وتشابهها، تقاطعها وتباينها، وبهذا يمكن أن نسلم أنه بإمكان الفضاء الروائي أن يجدد عند الشخوص حيوات نسيتها الذاكرة عن طريق تقنية فنية لا يحققها إلا الفضاء الروائي بما له من قدرة كبيرة على التجديد والاستفزاز. كل ذلك في سيرورة زمنية قد تكون محددة أو غير محددة .

" ويبقى التفاعل بين المكان والذاكرة ليغذي المخيلة التاريخية، مكونا وظيفة ما في الذاكرة ... فالمكان تصنعه الذاكرة مثلما تتكون هذه الذاكرة من مشهدية المكان القابع فيها. (لخضر بن السايح، سطوة المكان، 2011، ص9)

وإذا كانت الذاكرة تشكل خزان الأحداث والمشاعر التي ترافق الإنسان، فإن المكان فيه ترقد هذه الذكريات، وتستنطق عبره الأحداث من جديد ضمن ترنيمة سردية تتجاوز الواقع إلى الخيال. ولذا يمكن تأكيد القول: إن تاريخ الإنسان هو تاريخ تفاعله مع الفضاء.

ولا يمكن لشريط ذكرياتنا أن يشتغل إلا إذا وضع في جهاز خاص به، وقطعا هذا الجهاز هو المكان. وكما في حالة شخوص زيدان الروائية وأبطاله حيث نجده استنطق المكان وأفرزت جمالياته وشحناته الدلالية وما يكتنز من مشاعر بفعل الذاكرة وسلطانها.

إن ذاكرة الروائي زيدان والتي نقلها لنا على لسان ساردية هيبا ومارية واوكتافيا والنبطي وغيرهم، ليست مجرد ذاكرة تقريرية مفسرة تسجل لحظات ماضية، وتتذكر أمكنة عابرة أو تخضع لمجرد حنين عاطفي، ولا تستشرف أحداثا مستقبلية بأماكن خيالية وإنما هي ذاكرة حية تلامس الواقع بفعل الحاضر وأحلام المستقبل تلامس الإشكالية السردية في النص. ذاكرة مكلومة مؤلمة ولكنها طافحة بالحلم. ذاكرة مهزومة ولكنها تحتفظ بملامح الانتصار تارة للمكان، وتارة ضد المكان.

إن (الراوية حكاية إذا اعتمدت على خط تتابعي مستقيم يراعي فيه التدرج الزمني ومنطقية الحكي، وهذه الطريقة من شأنها أن تفقد وماضتها الإبداعية وأبعادها السيميائية وتنوعها الفني ولكي تخرج الرواية ...عن هذه النمطية التي تقربها من الحكاية والسيرة الذاتية تستعين بالاستذكار لتكسر منطقيتها وتتابعها) (لخضر بن السايح، سرد الجسد، 2011، ص9).

(إن الدوائر كلها تدور برأسي فلا توقفها إلا لحظات النوم حيث تدور أحلامي، وفي الأحلام مثلما هو الحال في صحوي تحتشد بقلبي الذكريات وتعتصرني .... الذكريات دوامات متتالية الدوائر ومتداخلة فإن استسلم لها وأحكيها بقلمي فمن أين أبدأ) (يوسف زيدان، 2011، ص15-16).

وهكذا نجد الذاكرة والمكان عند زيدان يتمازجان بفعل الأحداث المتوالية في تفاعل بين الذات الساردة والحكي بفعل عوامل متداخلة ومتعددة المجالات.

(كنت في تلك الأيام صغيرة لكنني أذكر جيدا هذا القداس وتلك الترانيم أذكر جند هرقل الذين أحاطوا الساحة وأذكر موائد الطعام العامرة، ساعة العصر والشموع والبخور والتراتيل التي تردد صداها في الأجواء ساعة المساء وأذكر أن الكاهن شنوتة كان غاضبا فلم يخرج يومها من بوابة الدرب) (يوسف زيدان، 2015، ص76).

(فاستبطان زمن الطفولة واستدعائه لا يعد فقط هروبا من الزمن القائم وإحلال الزمن الحاضر محله بل هو أيضا استدعاء لذلك الشعور الطفلي الخالي من وعي الزمن وقلق الفناء المصاحب له وهو أيضا استدعاء للانسجام والتناغم بل والتطابق الكلي الذي يحسه الطفل إزاء العالم الخارجي حيث لا مكان للتمايز بين الأنا والعالم) (قادة عقاق، 2011، ص272).

الخاتمة:

يمكن الخلوص في الأخير إلى أن المكان في الرواية عموما يتناغم ويتمازج مع الذاكرة تمازجا يجعلهما وجهان لمفهوم واحد بإمكانه المضي بالحركية السردية فالمكان يتحول في الرواية الجديدة إلى شخصية تسمع وترى وتتألم في نفوس الشخوص، فيقع فعل الاستذكار الذي تؤطره الذاكرة بحثا عن ولوج خارج الرتابة المملة التي تحدثها الحكاية الأم فيتحرر الروائي والسارد ويكسر أفق الانتظار وعند مقارنة كل هذا بالخطاب السردي عند يوسف زيدان فإننا واجدون مساحة واسعة من هذا المجال فهو لا يستطيع أبد الاشتغال خارج هذا الإطار فهو دائما يفاعل بين الفضاء والذاكرة، حتى غدت سمة من سماته وغدت الذاكرة ذات سطوة على نفوس شخوصه وساردیه وشكلت بصمة واضحة في حياتهم النفسية والذهنية والاجتماعية. وتعمل جل رواياته على تشظية وملمة ذاكرة المكان داخل نسيجه السردي موظفة سرد الذاكرة في إقحام المكان واستنفاره في مغامرته السردية.

ولعل ما يميز روايات يوسف زيدان أنه كما قلنا أنها تشتغل على ذاكرة ساريديها هيبا مثلا في رواية عزازيل ومارية في رواية النبطي وهذا على سبيل المثال لا الحصر، والتي كان لها الأثر والحضور ونقصد الذاكرة التي بسطت سلطتها، واستطاعت بفعل المكان أن تكون سلاحا للشخصية وسلاحا للسارد ومن ثم سلاحا للروائي من أجل بسط خطابه وفق ما يشتهيه.

- **المصادر والمراجع:**

1 ـ أحمد رجب، (2018)، معجزة الذاكرة الأدبية في قدرتها على المحو، **جريدة العرب**، لندن، عدد 11079، تاريخ 14-08-2018.

2 ـ حسن بحراوي، (1990)، **بنية الشكل السردي**، ط1، بيروت، المركز الثقافي العربي.

3 ـ حسن مصطفى سحلول، (1990)، **بنية الشكل الروائي**، ط1، بيروت، المركز الثقافي العربي.

4 ـ يوسف زيدان، (2011)، **رواية عزازيل**، ط22، القاهرة، دار الشروق.

5 ـ يوسف زيدان، (2015)، **رواية النبطي**، ط11، القاهرة، دار الشروق.

6 ـ لخضر بن السايح، (2011)، **سرد الجسد وغواية اللغة قراءة في حركية السرد الأنثوي وتجربة المعنى**، ط1، الأردن، عالم الكتب الحديث.

7 ـ لخضر بن السايح، (2011)، **سطوة المكان وشعرية القص في رواية ذاكرة الجسد دراسة في تقنيات السرد**، ط1 ، الأردن، عالم الكتب الحديث.

8 ـ قادة عقاق، (2001)، **دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر**، دط، سورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

9 ـ غالب هلسا، (1989)، **المكان في الرواية العربية**، ط1، دمشق، دار ابن هانئ.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

داودي بن حسين، بن السايح لخضر، (2021)، **المكان وسطوة الذاكرة عند يوسف زيدان** ، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، المجلد 12(العدد 1)، الجزائر: جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص 168-176.